ترتيبها	سورة المائدة	آياتها
٥	مكية(*)	١٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (١) ﴾

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ أدوها وافيةً غير منقوصة. وقد أمر القرآن بالوفاء بالعقود وبالعهود نحو عشر مرات، ولذلك قال الفقهاء: العقد شريعة المتعاقدين(١) ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ ﴾ أحل لكم أكل البهيمة من الأنعام وهى: الإبل والبقر والضأن والمعز، وقال مخلوف: [وألحق بها فى حل الأكل ما يماثلها فى الاجترار وعدم وجود الأنياب] ﴿ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ إلا ما سيتلى عليكم فى الآية الثالثة من السورة ﴿ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾ ولا يحل لكم صيد البر وأنتم محرمون بحج أو عمرة ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ هذه

(*) إلا الآية الثالثة، نزلت بعرفات فى حجة الوداع، وقد اتفق جمهور المفسرين على أن سورة المائدة من أواخر، إن لم تكن آخر، ما أنزل من القرآن، وأن آيتها الثالثة نزلت فى حجة الوداع، وتُسمى أيضًا سورة العقود.

(١) وفى المقابل، نجد التوراه تنهى اليهود عن إبرام العقود مع الأغيار؛ حيث نقرأ على سبيل المثال:

* إياكم أن تعقدوا معاهدة مع سكان الأرض ـ سفر الخروج ٣٤: ١٥.

* ومتى أدخلكم الرب إلهكم إلى الأرض التى أنتم ماضون إليها لترثوها، وطرد من أمامكم سبع أمم أكثر وأعظم منكم... فإنكم تحرمونهم لا تقطعوا لهم عهداً ولا ترفقوا بهم ـ سفر التثنية ٧: ١-٢.

أوامر الله يحكم كيفما يشاء، وما علينا إلا أن نقول: سمعنا وأطعنا ما دمنا قد آمنا بالله، فإذا بين الله لنا فقد طمأن قلوبنا، وإذا عهد لنا بالبحث عن تلك الحكمة، فعلينا الاجتهاد فى ذلك، وربما تستغلق علينا بعض الأحكام اليوم وتظهر لنا حكمتها غداً، أو تظهر للأجيال التالية، وقد يبقى بعضها فى علم الله إلى يوم القيامة.

***

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢) ﴾

***

﴿ لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ ﴾ لا تنتهكوا مناسك الله ﴿ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ ﴾ ولا تبدأوا عدوانًا فى الشهر الحرام، قال الطبرى: [هو رجب أو ذو القعدة]، وقال الزمخشرى: [هو شهر الحج]، وقال المراغى: [المراد به هنا ذو القعدة وذو الحجة والمحرم] بينما قال مخلوف: [هى الأشهر الحرم الأربعة (رجب، ذو القعدة ذو الحجة، المحرم)] ﴿ وَلا الْهَدْيَ ﴾ لا تتعرضوا للأضاحى التى تهدى إلى الكعبة ﴿ وَلا الْقَلائِدَ ﴾ ولا تنزعوا القلائد، وهى العلامات التى تعلق فى أعناق الهدى حتى يعرفه الناس ﴿ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ ﴾ ولا تتعرضوا لقاصدى المسجد الحرام ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ﴾ يريدون رضا الله عليهم فى الدنيا والآخرة ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ﴾ فإذا فرغتم من أعمال الحج وتحللتم؛ أحل الله لكم الصيد ﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ﴾ ولا تجعلكم كراهية قوم لكم صدوكم عن المسجد الحرام أن ترتكبوا جريمة العدوان ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ الأمر بالتعاون على عمل الخير واتقاء المعاصى، والنهى عن الإثم والعدوان، قاعدة أساسية من قواعد الإسلام ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾.

***

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ

﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾﴾

حرم الله على المسلمين أكل ﴿الْمَيْتَةُ﴾ الحيوان الذى زهقت روحه بغير ذبح شرعى ﴿وَالدَّمُ﴾ الدم المسفوح السائل ﴿وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾ الخنزير بجميع أجزائه ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ ما ذكر عند ذبحه اسمُ غيره تعالى ﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ﴾ التى تموتُ بالخنق ﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ المقتولة بالضرب بغير آلة الذبح ﴿وَالْمُتَرَدِّيَةُ﴾ الساقطة من جبلٍ أو فى بئر ﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾ التى نطحتها بهيمة أخرى فماتت ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ ما أكل منها حيوان مفترس له ناب ومخلب فماتت بجرحه ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ إلا ما أدركتموه وفيه حياة فذبحتموه شرعيًا بأن قطعتم أوداجه، وأنهرتم دمه، وذكرتم اسم الله عليه ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ النصب كانت حجارة منصوبة حول الكعبة ليذبح عليها تقربًا للأصنام ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ﴾ ولا تقترعوا بالأقداح لتحاولوا معرفة ما قسم الله لكم بشأن ما، وشرع الله لكم بدلاً من ذلك صلاة الاستخارة ﴿ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾ خروج عن طاعة الله إلى معصيته ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ﴾ يئس الكفار من ردكم للكفر ﴿فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ اخشوا أن تنتهكوا شرعى وأن تختلفوا كما اختلف الذين من قبلكم بعد أن جاءتهم البينات، ولا تخشوا الكفار أكثر من خشية الله، فتنحرفوا بذلك عن دينكم ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ نزلت هذه الآية يوم الجمعة، فى وقفة عرفة فى حجة الوداع، بين الله بها أن الرسول (ﷺ) أكمل إبلاغ رسالة الإسلام، عقيدة وشريعة، وفصل أحكام الدين وفرائضه، ولم ينزل بعد هذه الآية حلال ولا حرام، وتوفى بعدها بحوالى ثلاثة شهور، فى الثانى عشر من ربيع أول ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ وهى سبيل الفوز فى الدنيا والآخرة ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ فتمسكوا به، وأخلصوا فيه ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ أجبرته الظروف إلى تناول شىء من المحرمات المذكورة ﴿فِي مَخْمَصَةٍ﴾ فى مجاعة يخاف معها الموت ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ غير ساعٍ إلى حرام، فإن الله يغفر للمضطر ما أكَلَ، دفعًا للهلاك بقدر الضرورة، وقال الفقهاء: تقدر الضرورة بقدرها؛ فهو الغفور الرحيم.

***

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾

﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ يا رسول الله ﴿ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ ﴾ من الطعام ﴿ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ﴾ كل الطعام الطيب، والطيب تعنى أن مصدره طيب، وتعنى أنه طيب المذاق، مما لم يحرمه الكتاب ﴿ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ ﴾ وما صدتم بالجوارح مثل الكلاب والصقور ﴿ مُكَلِّبِينَ ﴾ التى علمتموها الصيد بالتدريب ﴿ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ ﴾ وقد عرفتم هذا التدريب مما علمكمُ الله، كيف تجعلونها تخدمكم ﴿ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ ﴾ فكلوا من صيدها الذى أمسكته وأحضرته إليكم ﴿ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ واذكروا اسم الله عند إرسال الجوارح لتمسك عليك الصيد، وعند ذبح الصيد، وعند أكله ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ واتقوا عصيان الله، واعلموا أنه سريع الحساب.

***

﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٥) ﴾

أحل الله لكم أيها المسلمون طعام اليهود والنصارى، وطعامكم حلال لهم، وأحل لكم الزواج من الحرائر من المسلمات ومن أهل الكتاب بشرط أن تدفعوا لهن حقوقهن فى المهور فى الحلال، وليس فى الحرام والظلام باتخاذ العشيقات، ومن يجحد شرع الله فقد بطلَ ثواب عمله، وسيكون من الخاسرين يوم الحساب.

***

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٦) ﴾

تبين الآية الوضوء، والتيمم فى حالة عدم وجود الماء أو الخشية من استعماله لمرض شديد، بطريقة إجمالية، وبينت السنة كل ذلك، مع تنوع فى استيعاب التفاصيل بتعدد المدارس

الفقهية، فالمسح بالرؤوس عند الشافعية يكفى فيه أقل جزء من الرأس، وقال الحنفية: ربع الرأس، وقال المالكية والحنابلة: بل الرأس كله، وقال الشيعة: إن فى الآية دليلاً على قولهم بمسح القدمين وليس غسلهما، أما الغائط فهو المكان المنخفض، وهو كناية عن قضاء الحاجة. ملامسة النساء أولها أكثر المفسرين والمدارس الفقهية على أنها جماع النساء، وعند ابن مسعود وابن عمر والشافعية لمس النساء، وفرق البعض بين اللمس المقصود وغير المقصود، واللمس بشهوة وبدون شهوة. وبينت السنة أن التيمم، ويعنى فى اللغة القصد، هو أن يضرب المرء بكفيه على الأرض الطاهرة، ثم يمسح وجهه وكفيه. ذلك تيسير من الله على المسلمين فى سعيهم لتطهير أنفسهم بالصلاة، التى تنهى عن الفحشاء والمنكر، وبها يذكرون الله، فيتم نعمته عليهم، لعلهم يشكرون فضله.

***

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾

النعمة هى الإسلام، والميثاق هو مع النبى (ﷺ) عند إسلامهم ومبايعتهم له على السمع والطاعة، وقال مجاهد: بل المقصود ميثاقه الذى أخذ على عباده حين أشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ كما سيجىء فى الآية ١٧٢ من سورة الأعراف، ولا مانع أن يكون المقصود الميثاقين، فحافظوا على نعمة الله وميثاقه، وهو العليم بما تفعلون وبما يجيش فى صدوركم.

***

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾

قال شلتوت: [ولا يفوت المؤمن أن التذكير بمواثيق القادر القاهر، الرحيم المتفضل، مما يوجب الوفاء، وأن التذكير بالنعم مما يوجب الشكر، والشكر والوفاء طريقهما القيام بأحكام الله وما يرضيه من أعمال الخير للفرد والجماعة، ولا ريب أن أعظم ما يغار الله عليه من الأحكام ما يكون محققًا للعدالة والرحمة بين عباده، ومن هنا جاء النداء الرابع من نداءات هذه السور ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ وقد اشتمل هذا النداء على أمور ثلاثة:

أولها: أن يكونوا قوامين لله، وهذا يمثل القوة والإخلاص فى الأقوال والأفعال، والثبات فى خدمته ـ سبحانه وتعالى ـ والارتفاع بالنفس عن منازل الانحطاط، ومزالق الهوى ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ(١٦٣)﴾ [الأنعام] لا يرضى الله لعباده إلا أن يكونوا فى منازل السمو والرفعة، والنأى عن مراتع الهوى والشهوات، لا يرضى لهم إلا السمو بأنفسهم إلى مدارج القوة والسلطان والهيمنة على كل ما سخر لهم فى هذه الحياة.

وثانيها: الشهادة بالقسط، وهى الغاية من إرسال الرسل، وإنزال الكتب ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥)﴾ [الحديد] فليس أمام المؤمنين فى تقرير الحق أو الحكم به قرابة، ولا ولاء، ولا مال، ولا جاه، ولا فقر، ولا غنى، ولا قوة ولا ضعف﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥)﴾ [النساء]. ولعلنا ندرك من هذه الآيات أن العدل قد سمت به التعاليم الإلهية عن مواطن التأثر بعواطف الأبوة والبنوة، ووضعت بإزائه «الحديد» للإشارة إلى أنه مطلوب من العباد، ويجب أن يسلكوا سبيله مهما كلفهم من جهود وتضحيات، ولو باستعمال الحديد والنار.

وثالثها: لم تقف الآية فى العدل عند طلب الشهادة به، بل أكدت هذا بالنهى عن الظلم ولو للأعداء، وحذرت أن تحمل العداوة والبغض على الظلم، والتساهل فى العدل، ولم تكتف بهذا، بل عادت فأمرت به ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

وقد كثرت أوامر الله فى القيام بالعدل. فأمر به عامّا وخاصّا، أمر به مع المخالفين فى الدين، وأمر به فى الحكم والقضاء، وأمر به بين الأولاد والزوجات، وأمر به النفس، وآيات ذلك كثيرة شهيرة، فليرجع إليها، وليتتبعها فى القرآن من شاء].

* * *

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٠)﴾

هذا وعد من الله للمؤمنين الذين يفعلون الخيرات بالمغفرة والجنة، ووعيد للكفار الرافضين لآيات الله، بجحيم جهنم.

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) ﴾

فى الآية تذكير عام بوقائع الاعتداء على المؤمنين، وما كان من أعدائهم من محاولات قتلهم واستئصالهم، ولا ريب أن التذكير بها يتضمن التذكير بنعمة النجاة منها، وتزايد قوى المؤمنين على رد العدوان، كما يتضمن لفت الأنظار إلى أسباب نجاة المؤمنين، من صدقهم وإخلاص نيتهم وتضامنهم فى رد كيد الكائدين، وكبح جماح الظالمين، وتنطبق الآية على الأولين والآخرين إذا عملوا بإحسان إلى يوم الدين.

قال شلتوت : [وليس التذكير بهذه النعمة قاصراً على من وقعت لهم تلك الوقائع، بل هى منة عامة يجب أن يشكرها لله ـ عز وجل ـ كل مؤمن إلى يوم القيامة، فالنبى (ﷺ) هو الذى قد بلغ الرسالة، وأصحابه هم الذين تلقوها بالقبول، وعملوا على نشرها فى الأقطار والجهات حتى وصلت سليمة من التحريف والتبديل إلى الذين جاءوا من بعدهم، فهى نعمة عامة شاملة، موصولة النفع بالأجيال كلها إلى يوم الدين إن شاء الله، وعلى المتأخرين الذين يعرفون فضل الله عليهم بهذه النعمة أن يذكروها، وأن يقفوا من دينهم وتعاليم نبيهم موقف السابقين الأولين، حتى يكون فيهم لمن بعدهم القدوة الحسنة التى كانت لهم فى آبائهم الأولين، وبذلك ينتفع آخر الأمة بما انتفع به أولها، وتكون الأمة الإسلامية كالحلقة يقوى أولها آخرها، ويسلك آخرها سبيل أولها، هكذا يجب أن تكون، ولكن لله فى خلقه شئون وشئون].

* * *

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢) ﴾

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أخذ الله عليهم الميثاق ﴿ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ وبعثنا فيهم اثنى عشر نقيبًا يوجهونهم للخير ﴿ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ﴾ سأحفظكم وأنصركم ولكن بشروط ﴿ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي ﴾ لئن أقمتم الدين، وعماده وعلامته الصلاة والزكاة، وآمنتم بجميع رسلى ﴿ وَعَزَّرْتُمُوهُمْ ﴾ أعنتموهم ونصرتموهم وقدرتموهم ﴿ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ بالإنفاق فى سبيل الله بالمال والنفس، فسيكون الجزاء ﴿ لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ وبعد هذا الميثاق وتكليف النقباء بتوجيهكم، من كفر منكم بعد كل هذا ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ حاد عن الطريق المستقيم.

***

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣) ﴾

وجزيناهم بنقضهم ميثاقهم وبتحريفهم كلام الله قلوبًا قاسية، لا تخشع للحق ولا تلين لآية ولا ترحم بشرًا ﴿ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ والنسيان هنا عمدى وليس عفوى، وهدفه التحريف فى دينهم حسب أهوائهم، والنسيان من قبيل ما جاء فى قوله تعالى ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾، ثم يحذر الله رسوله والمؤمنين، وإلى يوم الدين ﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ ﴾ ولا تزال تشاهد وتسمع منهم خيانات متوالية ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ فكما جاء من قبل ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٣] ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

***

﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤) ﴾

تبين الآية أن من قالوا إنهم نصارى، أسقطوا جزءًا مما ذكرهم الله به، وهو التوحيد الخالص، وكل طائفة أسقطت ذلك، دخلت فى دائرة العداوة والبغضاء مع طوائف المسيحية

الأخرى إلى يوم القيامة؛ إذ يصر كل فريق على أنه وحده على صواب[1]، ويوم الحساب ينبئهم الله بما كانوا يصنعون.

* * *

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦) ﴾

يا أهل الكتاب ـ من اليهود والنصارى ـ قد جاءكم رسولنا محمد (ﷺ) يبين ويوضح لكم كثيراً مما كنتم تكتمونه من التوراة والإنجيل ﴿ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ ولا يبين كثيراً مما أخفيتموه مما لا تدعو الحاجة إلى إظهاره ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ والنور هو هدى الله والكتاب المبين هو القرآن الكريم ﴿ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ من ظلمات التحريف إلى نور الإيمان ﴿ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾.

* * *

(١) جدير بالذكر أن شعار الكنيسة الكاثوليكية، الذى تظهره أحيانًا وتخفيه أحيانًا: لا خلاص خارج الكنيسة. أى ليس حتى للمسيحيين خارج الكنيسة الكاثوليكية خلاص، بينما قال مارتن لوثر مؤسس البروتستانتية: البابا عدو المسيح، وما زال ذلك رأى البروتستانت الملتزمين، ويقولون عن كنيسة روما إنها أكبر وثنية فى التاريخ. أما رأى الطائفتين الكاثوليكية والبروتستانتية فى الأرثوذكس، فهو أسوأ من رأيهما فى بعضهما البعض، وعندهم أن الكنيسة الأرثوذكسية قائمة على هرطقة. وكما نسى اليهود جزءاً من دينهم، وأحل الأحبار محله ما أرادوا، ـ من أراد دراسة ذلك يمكنه قراءة كتاب *تاريخ الكتاب المقدس*، كارين أرمسترونج ـ فعل بعض آباء الكنيسة الأوائل، ومن أهم من حمل لواء النصرانية بعد عيسى (ﷺ) ولم يلقه فى حياته كان بولس اليهودى، الذى كان فى الطريق من بيت المقدس إلى دمشق ليلقى القبض على بعض النصارى، فقال إن المسيح (ﷺ) ظهر له قائلاً: لماذا تضطهدنى؟ فتحول بعدها إلى المسيحية. ويكمل بولس روايته قائلاً: إنه لم يذهب ليتعلم من الحواريين المسيحية، ولكنه ذهب إلى سيناء، فتعلم هناك، ثم ذهب بعد ذلك ليتلمذ الأمم. ولم يكن فى سيناء وقتها سوى الديانة المصرية القديمة وما اختلط بها من أساطير الإغريق والرومان. وظهرت خلافات عديدة عن حقيقة المسيح وطبيعته، حتى صار هناك علم خاص فى المسيحية عن ذلك، فهل له طبيعة واحدة أو طبيعتان؟ وهل الطبيعتان منفصلتان أم ممتزجتان؟ وهل السيدة مريم أم فقط أم أم الإله؟ وكذلك من زعموا أنه أخوه، هل أخوه فقط أم أخو الإله؟ وظهرت فرق عديدة منها اليعقوبية والنسطورية والأريوسية، وبالطبع كان هناك فى البداية، ولا يزال هناك، الموحدون، وقد ظهر قانون الإيمان المسيحى على يد الإمبراطور قسطنطين فى مطلع القرن الرابع الميلادى، حين عقد مؤتمراً فى نيقية فى ٣٢٥م فرض فيه أسس العقيدة المسيحية القائمة حتى اليوم. وحاز الباباوات وكبار الأحبار سلطة التشريع، التحليل والتحريم، غفران الذنوب والطرد من الكنيسة، إدخال الرعية الجنة أو حرمانهم منها، فصارت لهم سلطة هائلة، وفى ذلك قال البارون أكتون الكاثوليكى قولته المشهورة: السلطة تميل للفساد، والسلطة المطلقة فساد مطلق.

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) ﴾

إن الذين قالوا ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ نطقوا كُفرًا بَواحًا، وكأن العذراء مريم قد ولدت رب العالمين، اسألهم يا محمد ﴿ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ أين هو المخلوق الذى يملك أن يمنع مشيئة الله ﴿ إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ من جميع المخلوقات، فكل ما عداه مخلوق له، خلقه ويميته ويحييه كما يشاء ومتى شاء ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ بدون أب وأم كآدم، أو بدون أب كعيسى (عليه السلام) ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

***

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨) ﴾

ادعاء أى جماعة أو طائفة أنها أبناء الله ليس له أساس، ولكن له الكثير من المزايا لدى المدعين، فهى تسقط عنهم الكثير من الواجبات، تجاه الله، وتجاه خلقه، وخطر ذلك الادعاء لا يجلب الشر على مدعيه فقط، بل على بقية البشرية؛ إذ تنظر تلك الطائفة الزاعمة أنها أبناء الله وأحباؤه إلى بقية البشر نظرة دونية، وتستحل حقوقهم، وأسطورة شعب الله المختار التى زعمها اليهود لأنفسهم، ثم زعمتها الكنيسة الكاثوليكية، ثم زعمها كثير من البروتستانت من الأنجلو ساكسون سببت، وما تزال تسبب، الكثير من المآسى للبشرية(١).

***

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٩) ﴾

---

(١) لمن يريد الاستزادة، فليراجع: *الكتاب المقدس والاستعمار*، للقس مايكل پريور، وكتاب *أسطورة الشعب المختار* للكاتب الكاثوليكى السياسى كليفورد لونجلى، *والكتاب المقدس والسيف* للمؤرخة اليهودية باربارا توخمان، والكتب الثلاثة من منشورات مكتبة الشروق الدولية.

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ جاءكم رسولنا محمد ﴿ يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ ﴾ يوضح لكم طريق الحق بعد أن توقفت الرسالات فترة من الزمن منذ أن رفع الله إليه عيسى (عليه السلام)، حتى لا تقولوا ﴿ مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ﴾ فلا عذر لكم ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

***

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) ﴾

حاول موسىَ (عليه السلام) تذكير قومه بنعم الله عليهم، من إرسال الأنبياء فيهم بدءًا من يعقوب (إسرائيل) (عليه السلام)، ومن بعده. وتعددت أقوال المفسرين فى المقصود بـ ﴿ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴾ فمنها تحررهم من ذل عبودية فرعون، ومنها أنها بشارة ببعث طالوت، وداود وسليمان، عليهما الصلاة والسلام، وغيرهم ملوكًا فى المستقبل، أى أنها ماض فى معنى الاستقبال، وقيل بل المقصود يوسف (عليه السلام)، الذى أصبح ملكًا غير متوج على مصر، ويحتمل أن أبناءه ورثوا منصبه من بعده، وقيل غير ذلك، وارجع لشرح الآية ٥٤ من سورة النساء. وأتاكم الله بينات لم يرها أحد من العالمين، مثل آيات موسى (عليه السلام) مع فرعون وآله، وشقه البحر لهم، ومثل ضربه الحجر، فانفجرت منه عيون لشربهم، ومثل إنزال المن والسلوى عليهم وغير ذلك.

***

﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣) ﴾

أمر الله بنى إسرائيل أيام رسوله موسى (عليه السلام) أن يدخلوا الأرض المقدسة التى كتبها الله لهم، ولم يحدد القرآن أين هى تلك الأرض، وتعددت أقوال المفسرين فيها ما بين بيت المقدس لدمشق لأريحا لأرض فلسطين أو الشام، وحذرهم من أن يرتدوا عن ذلك، فينقلب حالهم من فائزين برضا الله واختياره إلى خاسرين لأنفسهم ولاختيار الله بسبب عملهم. فلما رفضوا تكليف الله بحجة أن فى الأرض قومًا جبارين ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾

تعددت أقوال المفسرين فى ذلك، فهناك قول: إنهما رجلان من بنى إسرائيل الذين يخافون الجبارين، ولكن أنعم الله عليهما بحسن التوكل عليه، وهناك قول آخر: بأنهما رجلان من بنى إسرائيل يخافان الله ويتوكلان عليه، والقول الثالث: إن الرجلين من القوم الجبارين الذين يخشاهم بنو إسرائيل، أنعم الله عليهما بالإيمان وحسن التوكل عليه.

***

﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦)﴾

أما كل بنى إسرائيل، فقد أبوا الانقياد لأمر الله، وقالوا لموسى (عليه السلام) فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، فأسقط فى يده، واتجه إلى ربه داعيًا: رب إنى لا أملك من الأمر إلا نفسى وأخى هارون، فافتح بالحق بيننا وبين القوم العاصين، فجعلهم الله يتيهون أربعين سنة، وقال لرسوله: لا تحزن على العاصين لأمر الله.

***

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩)﴾

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ اقصص على الناس، فى عصرك، وبعد عصرك ﴿نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ﴾ هابيل وقابيل ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالصدق ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ تقرب كلٌ منهما بقربان إلى الله، فتقبل الله من هابيل ولم يتقبل قربان أخيه قابيل؛ لأن الله يتقبل من المتقين، فحسد قابيل أخاه هابيل وهدده ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ قال هابيل ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ وكأنه أراد أن يقول له: اتق الله ليتقبل منك، ثم قال له ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي﴾ لإن مددت يدك نحوى لتقتلنى ﴿مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ فلن أعاملك بالمثل، ولن أمد يدى لأقتلك ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ وسترجع إلى ربك وأنت تحمل إثم قتلى، وإثم عصيانك السابق، وتدخل جهنم، وذلك جزاء الظالمين.

***

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١) ﴾

سهلت له نفسه الأمارة بالسوء قتل أخيه، فأصبح من الخاسرين فى الدنيا والآخرة، فأرسل الله غرابًا ينبش تراب الأرض حتى يعلمه كيف يستر جثة أخيه، والسوءة هى العورة التى يسوء منظرها، والمقصود هنا جثة أخيه التى يسوءه رؤيتها، فقال: يا حسرتى وما ينتظرنى من ويل، هل عجزت أن أفعل مثل هذا الغراب؟ وأصبح من النادمين.

***

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢) ﴾

من أجل أول جريمة قتل على الأرض، حين قتل قابيل أخاه هابيل، شرعنا لبنى إسرائيل ﴿ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ بغير قتل نفس يوجب القصاص لها ﴿ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ وبغير فساد يوجب إهدار الدم ﴿ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ لأنه هتك حرمة النفس الإنسانية، وجرأ الناس على ذلك ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ ومن أنقذ نفسًا من الهلاك، فكأنما أحيا الناس جميعًا فى هذه النفس، باحترامها وبضربه المثل لما يجب فعله ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ جاءت إليهم رسلنا بالآيات الواضحات، ورغم ذلك ﴿ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ فى العصيان.

***

﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٤) ﴾

قال الطبرى: [اختلف أهل التأويل فيمن نزلت هذه الآية، فقال بعضهم: نزلت فى قوم من أهل الكتاب كانوا أهل موادعة لرسول الله (ﷺ)، فنقضوا العهد وأفسدوا فى الأرض فعرف الله نبيه (ﷺ) الحكم فيهم، وقال آخرون: نزلت فى قوم من المشركين، وقال آخرون:

بل نزلت فى قوم من عرينة وعكل[1] ارتدوا عن الإسلام وحاربوا الله ورسوله، وبعضهم يقول: هم ناس من بنى سليم، ومنهم من عرينة وناس من بجيلة. وأولى الأقوال عندى أن يقال: أنزل الله هذه الآية على نبيه (ﷺ)، مُعَرِّفة حكمه على من حارب الله ورسوله، وسعى فى الأرض فساداً، بعد الذى كان من فعل رسول الله (ﷺ) بالعرنيين. وقد اختلف أهل العلم فى نسخ حكم النبى (ﷺ) فى العرنيين، واختلف أهل العلم فى المستحق اسم «المحارب لله ورسوله»، وأولى الأقوال عندى بالصواب قول من قال «المحارب لله ورسوله» من حارب فى سابلة المسلمين (أى من قطع طريق عامة المسلمين) وذمتهم، والمغير عليهم فى أمصارهم وقراهم حرابة].

يتوقف العقاب على الجريمة بقدرها، فالقتل بالقتل، وأخفها النفى من الأرض، الذى فسره أبو حنيفة وغيره من الفقهاء بالحبس، وهو جزاء إخافة الناس، والقطع من خلاف للسرقة المصحوبة بالإخافة، وتستثنى الآية من تاب قبل القدرة عليه، فيمكن لولاة الأمر العفو عنه إذا رد مسروقاته، أو عفا أصحاب الدم عنه أو رضوا بالفدية.

والمسألة متشعبة التفاصيل والآراء، ومحلها كتب الفقه.

***

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣٥) ﴾

يا أيها الذين آمنوا خافوا الله واتقوا عصيانه الذى يجلب غضبه ﴿ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ اسعوا إليه، إلى معرفته وإلى التقرب إليه بكل ما بينه لكم ﴿ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ ﴾ بأموالكم وأنفسكم ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ برضاه والجنة.

***

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦) يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٧) ﴾

(١) روى البخارى عن أنس بن مالك أن ثمانية رجال من قبيلة عكل قدموا إلى رسول الله (ﷺ) فبايعوه على الإسلام، ثم اشتكوا من عيشة المدينة، فنصحهم الرسول (ﷺ) بأن يعيشوا على أطرافها على إبل بيت المال، فسرقوا الإبل، وقتلوا الراعى وفروا، فأرسل وراءهم من أتى بهم، واقتص منهم.

لن ينفع الكفار يوم القيامة لو قدموا كل ما كان عندهم فى الأرض من ثروات وممتلكات فداءً لهم من عذاب الآخرة، ولن يخرجوا من النار وجحيمها؛ وهم فى عذاب دائم، وجاء فى الحديث «يُجاءُ بالكافر يوم القيامة، فيقال له: أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبًا أكنت تفتدى به؟ فيقول: نعم. فيقال له: قد كنتَ سُئلتَ ما هو أيسر من ذلك: ألا تشرك بى، فأبيت إلا الكفر، ثم يؤمر به إلى النار» رواه البخارى.

***

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٩)﴾

قد تكون السرقة أكثر الجرائم انتشاراً فى تاريخ البشرية، قديمًا وحديثًا. وهناك الآن بعض الدول الآسيوية، يقتل الناس فيها اللص إذا أمسكوه، ولا تفعل الشرطة شيئًا إزاء ذلك. كذلك كان المهاجرون القدامى فى الولايات المتحدة يشنقون من يسرق جيادهم حتى مطلع القرن التاسع عشر، والآن لم تمنع عقوبة السجن استئناف اللص للسرقة بعد خروجه، بل كثيراً ما تزداد أخلاق المساجين سوءًا وشرًا بعد خروجهم.

قال الرازى فى تفسيره: [قال كثير من المفسرين الأصوليين: هذه الآية مجملة (أى غير مفصلة، وتحتاج لبيان)... وقال بعض العلماء التابعين: يسقط عنه الحد؛ لأن ذكر الغفور الرحيم فى آخر الآية يدل على سقوط العقوبة عنه، وقال الجمهور: لا يسقط عنه الحد]، وتناولها القرطبى فى سبعة وعشرين مسألة عمن هو السارق والسارقة، والقيمة التى تستوجب الحد، وكيفية الحفظ التى تستوجب ذلك، أى الحرز، وإذا اشترك جماعة أو قام بها واحد، والأحوال التى يمتنع فيها إقامة الحد مثل الحرب (والمجاعة)، والمال شبه المشاع، وغير ذلك وقال فيمن يتوب عن السرقة: [القطع لا يسقط بالتوبة، وقال عطاء وجماعة يسقط بالتوبة قبل القدرة على السارق، وقاله بعض الشافعية، وعزاه إلى الشافعى قولاً، وتعلقوا بقول الله تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ وذلك استثناء من الوجوب فوجب حمل جميع الحدود عليه].

وقال سيد قطب: [... إن المجتمع المسلم يوفر لأهل دار الإسلام ـ على اختلاف عقائدهم ـ ما يدفع خاطر السرقة عن كل نفس سوية.. إنه يوفر لهم ضمانات العيش والكفاية، وضمانات التربية والتقويم، وضمانات العدالة فى التوزيع. وفى الوقت ذاته

يجعل كل ملكية فردية فيه تنبت من حلال؛ ويجعل الملكية الفردية وظيفة اجتماعية تنفع المجتمع ولا تؤذيه.. ومن أجل هذا كله يدفع خاطر السرقة عن كل نفس سوية.. فمن حقه إذن أن يشدد فى عقوبة السرقة، والاعتداء على الملكية الفردية، والاعتداء على أمن الجماعة.. ومع تشديده فهو يدرأ الحد بالشبهة؛ ويوفر الضمانات كاملة للمتهم حتى لا يؤخذ بغير الدليل الثابت..

ولعله من المناسب أن نفصل شيئًا فى هذا الإجمال..

إن النظام الإسلامى كلٌّ متكامل، فلا تفهم حكمة الجزئيات التشريعية فيه حق فهمها إلا أن ينظر فى طبيعة النظام وأصوله ومبادئه وضماناته. كذلك لا تصلح هذه الجزئيات فيه للتطبيق إلا أن يؤخذ النظام كاملاً؛ ويعمل به جملة. أما الاجتزاء بحكم من أحكام الإسلام، أو مبدأ من مبادئه، فى ظل نظام ليس كله إسلاميًا، فلا جدوى له؛ ولا يعد الجزء المقتطع منه تطبيقًا للإسلام؛ لأن الإسلام ليس أجزاء وتفاريق. الإسلام هو هذا النظام المتكامل الذى يشمل تطبيقه كل جوانب الحياة..

إن الإسلام يبدأ بتقرير حق كل فرد، فى المجتمع المسلم فى دار الإسلام، فى الحياة. وحقه فى كل الوسائل الضرورية لحفظ الحياة.. من حق كل فرد أن يأكل وأن يشرب وأن يلبس وأن يكون له بيت يكنه ويؤويه، ويجد فيه السكن والراحة.. من حق كل فرد على الجماعة ـ وعلى الدولة النائبة عن الجماعة ـ أن يحصل على هذه الضروريات.. أولاً عن طريق العمل ـ ما دام قادرًا على العمل ـ وعلى الجماعة ـ والدولة النائبة عن الجماعة ـ أن تعلمه كيف يعمل، وأن تيسر له العمل، وأداة العمل.. فإذا تعطل لعدم وجود العمل، أو أداته، أو لعدم قدرته على العمل، جزئيًا أو كليًا، وقتيًا أو دائمًا، أو إذا كان كسبه من عمله لا يكفى لضرورياته، فله الحق فى استكمال هذه الضروريات من عدة وجوه: أولاً: من النفقة التى تفرض له شرعًا على القادرين فى أسرته، وثانيًا: على القادرين من أهل محلته. وثالثًا: من بيت مال المسلمين من حقه المفروض له فى الزكاة. فإذا لم تكف الزكاة فرضت الدولة المسلمة المنفذة لشريعة الإسلام كلها فى دار الإسلام، ما يحقق الكفاية للمحرومين فى مال الواجدين (الأثرياء)؛ بحيث لا تتجاوز هذه الحدود، ولا تتوسع فى غير ضرورة. ولا تجور على الملكية الفردية الناشئة من حلال..

والإسلام كذلك يتشدد فى تحديد وسائل جمع المال؛ فلا تقوم الملكية الفردية فيه إلا من حلال.. ومن ثم لا تثير الملكية الفردية فى المجتمع المسلم أحقاد الذين لا يملكون؛ ولا تثير

أطماعهم فى سلب ما فى أيدى الآخرين. وبخاصة أن النظام يكفل لهم الكفاية؛ ولا يدعهم محرومين.

والإسلام يربى ضمائر الناس وأخلاقهم؛ فيجعل تفكيرهم يتجه إلى العمل والكسب عن طريقه؛ لا إلى السرقة والكسب عن طريقها.. فإذا لم يوجد العمل، أو لم يكف لتوفير ضرورياتهم، أعطاهم حقهم بالوسائل النظيفة الكريمة..

وإذن، فلماذا يسرق السارق فى ظل هذا النظام؟ إنه لا يسرق لسد حاجة، إنما يسرق للطمع فى الثراء من غير طريق العمل. والثراء لا يطلب من هذا الوجه الذى يروع الجماعة المسلمة فى دار الإسلام، ويحرمها الطمأنينة التى من حقها أن تستمتع بها، ويحرم أصحاب المال الحلال أن يطمئنوا على مالهم الحلال.

وإنه لمن حق كل فرد فى مثل هذا المجتمع، كسب ماله من حلال، لا من ربا، ولا من غش، ولا من احتكار، ولا من أكل أجور العمال، ثم أخرج زكاته، وقدم ما قد تحتاج إليه الجماعة من بعد الزكاة.. من حق كل فرد فى مثل هذا النظام أن يأمن على ماله الخاص، وألا يباح هذا المال للسرقات أو لغير السرقات.

فإذا سرق السارق بعد ذلك كله.. إذا سرق وهو مكفى الحاجة، متبين حرمة الجريمة، غير محتاج لسلب ما فى أيدى الآخرين؛ لأن الآخرين لم يغصبوا أموالهم ولم يجمعوها من حرام.. إذا سرق فى مثل هذه الأحوال، فإنه لا يسرق وله عذر، ولا ينبغى لأحد أن يرأف به متى ثبتت عليه الجريمة.

فأما حين توجد شبهة من حاجة أو غيرها، فالمبدأ العام فى الإسلام هو درء الحدود بالشبهات. لذلك لم يقطع عمر (رضي الله عنه) فى عام الرمادة، حينما عمت المجاعة. ولم يقطع كذلك فى حادثة خاصة؛ عندما سرق غلمان ابن حاطب بن أبى بلتعة ناقة من رجل من مزينة. فقد أمر بقطعهم؛ ولكن حين تبين له أن سيدهم يجيعهم، درأ عنهم الحد؛ وغرم سيدهم ضعف ثمن الناقة تأديبًا له.

وهكذا ينبغى أن تفهم حدود الإسلام، فى ظل نظامه المتكامل؛ الذى يضع الضمانات للجميع لا لطبقة على حساب طبقة.. والذى يتخذ أسباب الوقاية قبل أن يتخذ أسباب العقوبة، والذى لا يعاقب إلا المعتدين بلا مبرر للاعتداء]..

وجاء فى بداية المجتهد لابن رشد: [واتفقوا على أن لصاحب السرقة أن يعفو عن السارق ما لم يرفع ذلك للإمام]، وتناول الرازى الموضوع فى أكثر من عشر مسائل، فقال فى المسألة الخامسة: [قال الشافعى رحمه الله: أغرم السارق ما سرق، وقال أبو حنيفة والثورى وأحمد وإسحق: لا يجمع بين القطع والغرم، فإن غرم فلا قطع، وإن قُطع فلا غرم. وقال مالك رحمه الله: يقطع بكل حال]، ثم قال فى المسألة الثانية بعد العاشرة: [إذا تاب قبل القطع تاب الله عليه، وهل يسقط عنه الحد؟ قال بعض العلماء التابعين، يسقط عنه الحد؛ لأن ذكر الغفور الرحيم فى آخر الآية يدل على سقوط العقوبة عنه، وقال الجمهور: لا يسقط عنه الحد، بل يقام على سبيل الامتحان].

وإذا كان البعض ـ فى الحاضر ـ يرى قطع اليد عقابًا صارمًا أو غير إنسانى، فمن الناحية الأخرى، عليه أن يرى انتشار السرقة فى العصر الحديث، وأن الكثير من السارقين يخرجون من سجونهم ليعودوا للسرقة مرة ثانية وثالثة.. وعاشرة، بالإضافة لأن حبس البشر فى زنازين حديدية كالحيوانات هو أيضًا عقاب صارم وغير إنسانى.

ويقول البعض الآخر: أمر القرآن بردع العدوان قائلاً: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠] وبالطبع يفرض الحاضر وسائل أخرى لردع العدوان، فهل يجوز البحث عن وسيلة أخرى لمعاقبة السارق وردعه؟

اقترح الشيخ عبد المتعال الصعيدى، وهو من علماء الأزهر النابهين فى الثلاثينيات، أن تكون عقوبة القطع هى الحد الأعلى الذى لا يلاذ به إلا فى ظروف مشددة، كما أنه رأى أن الأمر فى كلمة ﴿فَاقْطَعُوا﴾ فى الآية ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ يمكن أن يكون للإباحة لا للوجوب، كما جاء فى الآية ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأعراف]، فإن الأمر فى قوله ﴿خُذُوا﴾ و ﴿كُلُوا﴾ و﴿اشْرَبُوا﴾ هو للإباحة لا للوجوب.

وأثار هذا الرأى ثائرة الفقهاء الذين رأوا أنه يعنى أن الحدود تكون اختيارية يمكن عدم التقيد بها فى المعاملات.. وللرد على هذا أورد الشيخ عبد المتعال آراء بعض كبار الفقهاء فى إحلال الغرم محل القطع.

وقال شلتوت فى كتابه *الإسلام عقيدة وشريعة* :

[ضمانًا للعدل، روعى الاحتياط فى ثبوت الجريمة والحكم بالعقوبة وتنفيذها، وأصل هذا قوله (ﷺ): «ادرءوا الحدود بالشبهات، ادفعوا القتل عن المسلمين ما استطعتم»، وقوله (ﷺ) «ادرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم، فإن وجدتم للمسلمين مخرجًا فخلوا سبيلهم، فإن الإمام لئن يخطئ فى العفو خير من أن يخطئ فى العقوبة»[1]]، ثم قال تحت عنوان :

الاحتياط فى الحكم بالعقوبة

ومع ذلك، فقد وضع للحكم بهذه العقوبات وتنفيذها، شروطًا حرص كل الحرص على تحققها، صونًا للعدالة، وبعدًا عن الأخذ فيها بالشبهة.

وقد جعل لتحقق التوبة من المجرم، والعلم بصلاح نفسه قبل تنفيذ العقوبة عليه ـ فيما يختص بالاعتداء على حقوق العامة ـ أثرًا فى تخلية سبيله والتجاوز عن عقابه.

كما رغَّب ـ فيما يتعلق بحق العبد ـ صاحب الحق، فى العفو عن حقه، ووعده بعظيم الأجر والمثوبة. واقرأ فى هذا قوله تعالى فى آخر آية المحاربين: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ وقوله تعالى فى آخر آية السرقة ﴿فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾. وقوله تعالى فى آية القصاص، وستأتى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ١٧٨].

أثر توبة الجانى فى إسقاط العقوبة

١٥- هذا، وقد كتب الإمام ابن القيم فى كتابه *«إعلام الموقعين»* فصلاً قيمًا، بيّن به أن توبة الجانى تسقط عنه العقوبة، لا فرق بين جريمة وجريمة ـ نسوقه هنا لجليل نفعه، وعظيم قدره، فيما نحن بصدده. قال: «وأما اعتبار توبة المحارب قبل القدرة عليه دون غيره، فيقال: أين فى نصوص الشارع هذا التفريق؟ بل إن نصه على اعتبار توبة المحارب قبل القدرة عليه، من باب التنبيه على اعتبار توبة غيره بطريق الأولى، فإنه إذا دفعت توبته عنه حدَّ حرابه مع شدة ضررها وتعديه، فلأن تدفع التوبة ما دون حدّ إحراب بطريق الأولى والأحرى. وقد

(١) كتبت الموسوعة البريطانية«بريتانيكا» طبعة ٢٠٠٦ مدخلاً عن السيرجون فورتسيكو (ولد ١٣٨٥ ـ توفى ١٤٧٩) باعتباره أول من أدخل فى أوروبا مفهوم أنه أفضل للمذنب أن ينجو بذنبه بدلاً من أن يُنزل العقاب بالبرىء.

قال الله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال: ٣٨]. وقال النبى (ﷺ): «التائب من الذنب كمن لا ذنب له».

والله ـ تعالى ـ جعل الحدود عقوبة لأرباب الجرائم، ورفع العقوبة عن التائب شرعًا وقدرًا، فليس فى شرع الله، ولا فى قدره عقوبة تائب ألبتة. وفى الصحيحين من حديث أنس، قال: كنت عند النبى (ﷺ)، فلما قضى النبى (ﷺ) الصلاة قام إليه رجل، فقال: يارسول الله! إنى أصبت حدًا، فأقم فىَّ كتاب الله. قال «أليس قد صليت معنا؟» قال: نعم. قال: «فإن الله عز وجل قد غفر لك ذنبك».

فهذا لما جاء تائبًا بنفسه ـ من غير أن يطلب ـ غفر الله له، ولم يقم عليه الحد الذى اعترف به، وهو أحد القولين فى المسألة، وهو إحدى الروايتين عن أحمد، وهو الصواب.

فإن قيل: فماعز جاء تائبًا، والغامدية جاءت تائبة، وأقام عليهما الحد؟ قيل: لا ريب أنهما جاءا تائبين، ولا ريب أن الحد أقيم عليهما، وبهما احتج أصحاب القول الآخر. وسألت شيخنا عن ذلك، فأجاب بما مضمونه: إن الحد مطهر، وإن التوبة مطهرة، وهما اختارا التطهير بالحد، على التطهير بمجرد التوبة، وأبيا إلا أن يطهرا بالحد، فأجابهما النبى (ﷺ) فقال فى حق ماعز: «هلا تركتموه يتوب فيتوب الله عليه»؟!. ولو تعين الحد بعد التوبة لما جاز تركه، بل الإمام مخير بين أن يتركه، كما قال لصاحب الحد الذى اعترف به: «اذهب فقد غفر الله لك»، وبين أن يقيمه، كما أقامه على ما عز والغامدية لما اختارا إقامته، وأبيا إلا التطهير به، ولذلك ردهما النبى (ﷺ) مرارًا وهما يأبيان إلا إقامته عليهما.

وهذا المسلك وسط بين مسلك من يقول: «لا تجوز إقامته بعد التوبة البتة، وبين مسلك من يقول: لا أثر للتوبة فى إسقاطه البتة. وإذا تأملت السنة رأيتها لا تدل إلا على هذا القول الوسط»[(١)].

هذا هو الفصل الذى رأيت نقله مما كتبه الإمام ابن القيم، فيما يتصل بأثر التوبة فى سقوط العقوبة. وعليك بمراجعة جميع ما كتبه فى شأن العقوبة الإسلامية، وحكمتها على وجه العموم، وحكمة توزيعها على الجرائم، وستجد فيه مما يملؤك إيمانًا بحكمة المشرع الإسلامى فى هذه الناحية الخطيرة][(٢)].

***

(١) انظر الجزء الثانى من «*إعلام الموقعين*» ـ صفحتى ١٩٧، ١٩٨. وراجع الجزء السابع من «نيل الأوطار»، والرابع من كتاب «*سبل السلام*» لتعرف قصه ماعز والغامدية.

(٢) انظر الجزء الثانى من «*إعلام الموقعين*» ـ ص ٢١٤ إلى ٢٣٤.

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٠) ﴾ .

حقيق عليك أن تعلم أن الله وحده مالك السماوات والأرض، إن شاء عذب بحكمته وقدرته، وإن شاء غفر بحكمته ورحمته.

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ(١) مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١) ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ من المنافقين الذين آمنوا قولاً وليس قلبًا ولا عملاً، ومن اليهود الذين يسمعون الكذب من أحبارهم ويستجيبون لهم ﴿ لَمْ يَأْتُوكَ ﴾ لم يحضروا مجلسك جحودًا وتكبرًا وبغضًا، وهؤلاء الأحبار يحرفون ما جاء في كتابهم ﴿ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ﴾ يقولون لأتباعهم إن أتاكم محمد بما نقوله فاقبلوه، وإن أتاكم بغيره فارفضوه ﴿ وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ فمن يرد الله إضلاله جزاءً لتكبره وجحوده، فلن تملك هدايته ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴾ من دنس المعصية ﴿ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ﴾ يعيشون في الدنيا في خزي ﴿ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ في جهنم، وأولئك هم الذين تنطبق عليهم الآية ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) ﴾ [الأعراف].

* * *

﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢) ﴾

(١) قال إرميا: كيف تدعون أنكم حكماء ولديكم شريعة الرب بينما حولها قلم الكتبة المخادع إلى أكذوبة؟ ـ إرميا ٨: ٨ .

أولئك يحبون الكذب، كثيرو الأكل للمال الحرام[1] ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فإذا لجأوا إليك، فاحكم بينهم أو أعرض عنهم إذا وجدتهم غير مخلصين فى طلب حكمك، وإذا أعرضت عنهم فلن يستطيعوا أن يضروك، وإذا حكمت بينهم فاحكم بالعدل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

* * *

﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾

عجبًا لأمر هؤلاء اليهود، يلجئون إليك لتحكم بينهم وهم لا يؤمنون بك ولا بالقرآن، فى الوقت الذى يملكون فيه التوراة فيها حكم الله! فإذا ما حكمت لهم تولوا وأعرضوا ﴿وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ بك أو بالإسلام أو بالتوراة، وإنما هم يبحثون عن محلل لذنوبهم.

* * *

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾

بينت الآية السابقة أن التوراة فيها حكم الله، تهدى إلى الحق وتنير سبيل الله للمؤمنين ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ يحكم بها أنبياء بنى إسرائيل الذين أسلموا وجوههم لله ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ أى لليهود ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ ويحكم بها العلماء والفقهاء والحكماء المنسوبون للرب، والأحبار المخلصون ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ﴾ بما أمرهم الله بحفظه من كتابه ﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ رقباء على ما جاء فيه ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ فلا تخافوا الناس فى الحكم بما أنزلت، ولكن خافونى، والخطاب هنا لكل

(١) من ضمن ما قاله عيسى (ﷺ) عنهم: لكم الويل أيها الكتبة والفريسيون المراءون! فإنكم تُغلقون ملكوت السماوات فى وجه الناس، فلا أنتم تدخلون ولا تدعون الداخلين يدخلون.. تلتهمون بيوت الأرامل.. تنظفون الكأس والصحفة من الخارج، ولكنهما من الداخل ممتلئتان بما كسبتم بالنهب والطمع.. أيها الحيات أولاد الأفاعى! كيف تفلتون من عقاب جهنم؟- متى الإصحاح ٢٣: ١٣- ٣٤.

المؤمنين ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ ولا تستبدلوا بآياتى التى أنزلتها أحكامًا أخرى تبعًا لأهوائكم وأهواء الحكام وأصحاب النفوذ والأثرياء فى الأرض؛ فإنما متاع الدنيا قليل ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال مخلوف: [قال ابن عباس: من لم يحكم بما أنزل الله جاحدًا فهو كافر، ومن أقرَّ به ولم يحكم فهو ظالم فاسق. وهو اختيار الزَّجَّاج].

***

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥)﴾

وفرضنا عليهم فى التوراة أن النفس تُقتل بالنفس، وأن العين تُفقأ بالعين، وأن الأنف يُجْدَعُ بالأنف، وأن السن يُنزع بالسن، وتقتص الجراح بالجراح ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ﴾ فمن عفا وتصدق بحقه فى القصاص على الجانى، كان هذا التصدق كفارة له عن بعض ذنوبه ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ من القصاص وغيره، فأولئك هم الظالمون. هل الظلم هنا من قبيل ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]؟ أم هى صفة تضاف لصفة الكافر فى الآية السابقة، أى أنه كافر وظالم؟ أم المقصود الظلم الذى يمارسه الناس فى الحكم بين بعضهم البعض، وليس المقصود الكفر الذى يُخرج من الملة؟ تعددت الأقوال، وارجع لقول ابن عباس فى الآية السابقة، وفى أىٍّ من ذلك تحذير خطير لأولى الألباب.

***

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧)﴾

وأرسلنا عيسى ابن مريم (ﷺ) على إثر أنبياء بنى إسرائيل، مصدقًا على ما جاء فى التوراة، ويحل بعض ما فيها كما جاء فى الآية ٥٠ من سورة آل عمران، وأنزلنا عليه الإنجيل، فيه آيات تهدى المؤمنين وتنير لهم سبيل الله، وتعظ المتقين، وعلى أهل الإنجيل أن يحكموا بما أنزل الله فيه، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون. والفسق هو الخروج عن طاعة الله. هل هذا فسق الكفر أم فسق المعصية؟ وهل هو إضافة للوصفين السابقين فى الآيتين ٤٤، ٤٥؟ ارجع للشرح السابق، وقول ابن عباس واختيار الزَّجَّاج.

وقال النسفى: [قال الشيخ أبو منصور رحمه الله: يجوز أن يحمل على الجحود فى الثلاث، فيكون كافرًا ظالمًا فاسقًا؛ لأن الفاسق المطلق والظالم المطلق هو الكافر، وقيل: ومن لم يحكم بما أنزل الله فهو كافر بنعمة الله ظالم فى حكمه فاسق فى فعله].

***

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨)﴾

أنزلنا القرآن بالحق فى كل أحكامه وأنبائه، مصدقًا لما سبقه من كتب سماوية ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ ضابطًا ومصححًا للكتب ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ فاحكم بينهم يا محمد بما أوحينا إليك ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ ولا تتبع أهواء من يريد مخالفة الحق ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ فإن الله أراد لحكمة منه أن يجعل لكلٍّ منكم شريعة ونهجًا، وقال الطبرى: [لكل أهل ملة منكم أيها الأمم، جعلنا شرعة ومنهاجًا] ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ويسير على رب العالمين أن يجعل الناس على شريعة واحدة لو شاء ﴿وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ ليختبركم فيما أتاكم من الشرائع ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ فسارعوا إلى ما هو خير لكم فى الدنيا والآخرة ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ المرجع والمآب إلى الله، فيخبركم من الذى سار على الحق ومن الذى ضل.

قال النسفى: [ذكر الله إنزال التوراة على موسى (عليه السلام)، ثم إنزال الإنجيل على عيسى (عليه السلام)، ثم إنزال القرآن على محمد (صلى الله عليه وسلم)، وبين أنه ليس للسماع فحسب، بل للحكم به، فقال فى الأول: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ﴾ وفى الثانى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ وفى الثالث: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾]، وقال المراغى: [روى عن قتادة: للتوراة شريعة، وللإنجيل شريعة، وللقرآن شريعة، يحل الله فيها ما يشاء ويحرم ما يشاء، ولكن الدين الذى لا يقبل غيره هو التوحيد]، وقال مخلوف: [اقتضت حكمته تعالى أن يختم شرائعه بشريعة عامّة كاملة كفيلة بمصالح الناس إلى يوم الدين؛ فأنزل بها القرآن وميّزه على سائر كتبه السابقة بما يعلمه الراسخون فى العلم، وبعث به خاتَمَ رسله وأفضلَ خَلْقه، وأمره

ببيانه للناس؛ فمنهم من أدرك هذه الحكمة؛ فعرف ربَّه حقَّ المعرفة، وآمن به وبكتبه ورسله وعَمل بأحكامه. ومنهم من جَهلها فجَمدَت قريحتُه وفسدَت سريرته، وآمن ببعض وكفر ببعض؛ فكان لله عاصيًا، ولحكَمته جاحدًا، ولرسله مكذّبًا، وعن كتبه معرضًا، وبغضب الله حقيقًا (مستحقًا)، ولنقمته أهلاً].

***

﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

الآية تأمر الرسول (ﷺ) أن يحكم بينهم بما أنزل الله، فهل المقصود فقط أن يحكم بين المسلمين وأهل الكتاب بما أنزله الله فى القرآن؟ أم أن المقصود أن يحكم على المسلمين بالقرآن وعلى النصارى بالإنجيل وعلى اليهود بالتوراة؟ السنة وأفعال الخلفاء والتراث تقول بالثانى فى أحوالهم الشخصية، ثم تحذر الآية الرسول (ﷺ) من اتباع أهواء المخالفين؛ فكثير من الناس فاسقون، ويريدون حكم الجاهلية بدلاً من حكم رب السموات والأرض، قديمًا وحديثًا، وقال الزمخشرى: [عن الحسن: الحكم حكمان: حكم بعلم الله، فهو حكم الله، وحكم بجهل، فهو حكم الشيطان].

***

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

الولاء المنهى عنه هو ولاء التناصر والتحالف فى الحروب، ومن أمثال أولئك الذين نهى القرآن عن موالاتهم، ستجىء صفاتهم وأعمالهم فى الآية ٥٧ وما بعدها﴿نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ كان ذلك قول بعض المنافقين الذى خافوا أن تدور الدوائر على المسلمين فى المدينة، وأرادوا الموالاة الخاصة مع قبيلة يهودية أو أخرى. ومازال بعض المسلمين ينتهجون المنهج نفسه حتى اليوم، وكأن الآية تتحدث عما يحدث اليوم.

***

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣)﴾

وقد كان المنافقون أمثال عبد الله بن أبىّ يقسمون للمسلمين بأغلظ الأيمانات أنهم معهم. . . ثم فى موقف آخر يقول عبد الله بن أبىّ: إنى رجل أخاف الدوائر ـ أى أن تدور الأحداث والأيام على المسلمين ـ فلذلك لا أبرأ من ولاية اليهود؛ ولذا قال المؤمنون الصادقون متعجبين من المنافقين ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ أى مع المسلمين ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ بطلت ﴿فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ فى الدنيا والآخرة.

***

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤)﴾

بهذه الآية، وغيرها مثل ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ استدل من قال بأنه لا عقوبة على المرتد إلا إذا حارب المسلمين.

***

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦)﴾

إنما ولايتكم أيها المؤمنون لله وللرسول (ﷺ) ولأمثالكم من المؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، وهم خاشعون خاضعون لله. وإن كل من يتولى الله ورسُولهُ والمؤمنين فهو من حزب الله، و﴿حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

روى الطبرى والزمخشرى والألوسى وغيرهم: أن على بن أبى طالب هو من آتى الزكاة راكعًا حين دخل محتاج إلى المسجد النبوى ليسأل المسلمين المساعدة، فلم يعطه أحد شيئًا فجهر بالشكوى، وكان على راكعًا، فمد يده له بخاتمه.

***

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ (٥٨)﴾

ولا يزال القرآن ينهى عن موالاة الكفار والمشركين الذين يهزءون بدين الإسلام، ويستخفون به. ثم يأمر المؤمنين أن يتقوا الله، ويعملوا بما أمرهم من عدم اتخاذ مثل أولئك أولياء في العون والنصر، وينبه المؤمنين أن هؤلاء الكفار إذا ارتفع الأذان لحلول وقت الصلاة ﴿اتَّخَذُوهَا هُزُوًا﴾ سخروا واستهزءوا بصلاة المسلمين ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾.

***

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (٥٩) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ (٦٠) وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (٦١) وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢) لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (٦٣)﴾

نزلت الآيات في طائفة من أهل الكتاب كرهوا المسلمين ونافقوهم، كانوا يسارعون في ارتكاب الآثام التي نهاهم عنها كتابهم المقدس، في العدوان على الآخرين، وفي أكل أموالهم، سواء بالرشوة أو غيرها. وهددهم الله بأنهم إذا استمروا في جحودهم وآثامهم فستصبح طباعهم وممارساتهم شبيهة بما تفعله القردة والخنازير، وعبدة الشر والضلال، بل هم أسوأ وأشر؛ لأن الله كرمهم بجعلهم بشرًا، وأنزل عليهم كتبه وأرسل لهم أنبياءه، ولكنهم جحدوا وتكبروا ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (٦٣)﴾ في الآية توبيخ للربانيين والأحبار عن تقصيرهم في نهي قومهم عن الإثم والعدوان وأكل السحت، وقيل بل إن توبيخ الربانيين والأحبار لهم منعهم مما هو أسوأ مما يعملون.

***

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤)﴾

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ ممسوكة بقيد حتى لا تعطى، أو كناية عن البخل ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾ قيدت أيديهم ليصبحوا بخلاء، ولعنوا من الله ومن عباد الله بسبب ما قالوا ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ وبسط اليد كناية عن الكرم، فالله أكرم الأكرمين، ويعطى لمن يشاء بغير حساب ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ هؤلاء الذين قالوا ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ يزداد الكثير منهم طغيانًا وكفرًا بما أنزل الله عليك من الرسالة، وذلك حسدًا وكراهية دفينة فى قلوبهم المريضة ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ تلك الطوائف التى تقول يد الله مغلولة، والتى تسارع فى الإثم والعدوان وأكل السحت، والتى تحقد على المسلمين بسبب إيمانهم، ألقى الله بينهم وبين العالمين عداوة وبغضاء إلى يوم القيامة ﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ﴾ كلما أججوا الفتن وأشعلوا الحروب بينهم وبين رسول الله (ﷺ) والمؤمنين، أخمد الله تلك الحروب، وهذا ما سجله التاريخ وأكده الحاضر، فلليهود يد فى الغزو الأمريكى للعراق، وصدرت من إسرائيل أصوات عديدة تحذر من باكستان قبل دخول القوات الأمريكية إليها، وهم يؤلبون العالم على إيران منذ عدة سنوات، ناهيك عما فعلوه فى فلسطين ولبنان ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾.

***

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (٦٦) ﴾

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا ﴾ لو أن اليهود والنصارى آمنوا بمحمد (ﷺ) واتقوا معصية الله ﴿ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ لمحَوْنا ذنوبهم ﴿ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ جزاء إيمانهم بمحمد وترك المنكرات ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴾ نفذوا أحكامهما ووقفوا عند حدودهما ﴿ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ التوراة والإنجيل والقرآن ﴿ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ كناية عن تدفق الأرزاق الحلال، وليس استباحة أراضى وأموال الغير، وإبادته إذا لزم ﴿ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ﴾ منهم جماعة عادلة منصفة، ولكن ﴿ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ يشهد على ذلك بضعة قرون من استعمار أوروبا المسيحية لثلثى العالم، استنزفت فيها ثروات ودماء الشعوب، وحربان أشعلتهما فى العالم، شرقه وغربه، شماله وجنوبه، أسفرتا عن

بضع عشرات الملايين من القتلى، وأضعاف ذلك من الجرحى، وإبادة آلاف القرى والمدن، وما زال الغزو والعدوان مستمرًا.

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧) ﴾

إن الله يُطمئن رسوله فى هذه الآية بأن لا يخشى أحدًا، وعليه أن يبلغ رسالة ربه، والله سيتولى حمايته من أذى الناس، ويهديه سواء السبيل، ولن يهدى الله القوم الجاحدين.

وجاء فى كتب السيرة، أن الرسول (ﷺ) كان يتخذ حرسًا، فلما نزلت الآية صرفهم.

* * *

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٦٨) ﴾

قل يا محمد لأهل الكتاب لستم على تدين حق إلا إذا حكَّمتم فى حياتكم التوراة والإنجيل وما أنزله الله عليكم عن طريق رسلكم، وسيزداد الكثيرون منهم، ذوو العقول والقلوب الجاحدة المتكبرة الكارهة، طغيانًا وكفرًا بنزول الرسالة الخاتمة عليك، فلا تحزن على أولئك الكافرين.

* * *

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٩) ﴾

جاءت هذه الآية شبه مماثلة للآية ٦٢ فى سورة البقرة، فارجع للشرح هناك، مع تأكيد الاعتبار هنا بالقاعدة الأساسية فى القرآن ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً ﴾ فآيات سورة المائدة تكشف عن الكثير من الممارسات المنحرفة فى اليهودية والمسيحية، فتجىء الآية فى ذلك السياق لتؤكد القاعدة، مع تأكيد ثان للفارق الكبير فى نظرة الإسلام للآخر، عن نظرة أصحاب عقيدة شعب الله المختار، والشعوب الأخرى المستبعدة، سواء كان من يزعم أن المختار هو اليهود أو الكاثوليك أو البروتستانت.

* * *

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ (٧٠) وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٧١) ﴾

أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل على الإيمان بالله والعمل الصالح، وكلما أرسل الله إليهم رسولاً لإصلاح انحرافاتهم وكبح أهوائهم وإعادتهم للطريق المستقيم ﴿ فَرِيقًا كَذَّبُوا ﴾ رغم الدلائل الواضحة ﴿ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾ دون أن يتورعوا ﴿ وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ ظنوا أنهم لن يصيبهم بلاء وعذاب بتكذيب الرسل وقتل الأنبياء ﴿ فَعَمُوا وَصَمُّوا ﴾ اصطنعوا العمى والصمم عن دلائل الهدى والرشاد ﴿ ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ سامحهم وأعطاهم فرصة بعد فرصة، فكانت النتيجة أنهم ﴿ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ﴾ ضل وطغى كثير منهم مرة بعد مرة ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾.

***

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٧٢) ﴾

المسيح ابن مريم (عليه السلام) هو عبد من عبيد الله، كرمه الله بالرسالة وأيده بالمعجزات، وحاول إصلاح بنى إسرائيل بنهيهم عن الفساد والانحراف، وأمرهم بالعودة إلى عبادة الواحد الأحد، ولكن أحبار اليهود رفضوه كما رفضوا الكثير من أنبيائهم(١).

***

(١) ليس فى الأناجيل الأربعة قول للمسيح أنه إله، ولا هناك أمر لبنى إسرائيل بعبادته، والعقيدة التى قررت ذلك هى من أعمال بعض رجال الكنيسة والإمبراطور قسطنطين فى مجمع نيقية عام ٣٢٥م، أى بعد رفع المسيح بحوالى ثلاثة قرون، واتفق عليها أقلية من الحاضرين، ورفضوا اعتبار المسيح بشراً نبيّا، ورفضوا التوحيد الذى كان عليه عدد معتبر من الحاضرين. وإليك من الأناجيل التى بيد المسيحيين اليوم أقوال للمسيح عن الله:

* تقدم إليه واحد من الكتبة... فسأله: أية وصية هى أولى الوصايا جميعًا؟ فأجاب يسوع: أولى الوصايا جميعًا هى: اسمع يا إسرائيل، الرب إلهنا رب واحد... فقال له الكاتب: صحيح يا معلم! حسب الحق تكلمت. فإن الله واحد وليس آخر سواه ـ مرقس ١٢: ٢٨-٣٢.
* ولكنكم تسعون إلى قتلى؛ وأنا إنسان كلمتكم بالحق الذى سمعته من الله ـ يوحنا ٨: ٤٠.
* ... والحياة الأبدية هى أن يعرفوك أنت الإله الحق وحدك، والذى أرسلته يسوع المسيح ـ يوحنا ١٧: ٣.
* وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلايعرفهما أحد، لا الملائكة الذين فى السماء ولا الابن، إلا الآب ـ مرقس١٣: ٣٢. =

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٤) ﴾

لم يقل المسيح إنه ثالث ثلاثة، وإنما ذلك قول رجال الكنيسة والكهنوت، وقول الإمبراطور قسطنطين، ولم تخل المسيحية من طائفة موحدين، قديمًا وحديثًا.

***

﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٧٥) ﴾

المسيح (ﷺ) بشر، يأكل الطعام ويقضى حاجته، يتعب فينام، ثم يقوم، وبالمثل أمه السيدة مريم العذراء، فمن يرفض استخدام عقله وفطرته السليمة، فهو يجحد الحق ويسير وراء الضلال.

***

﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧) ﴾

أتعبدون رسول الله عيسى (ﷺ) وهو لا يستطيع أن يضركم ولا ينفعكم إلا بإذن الله؟ يا أهل الكتاب لا تتجاوزوا وتُفرطوا وتتمادوا فى غير الحق فتؤلهوا عيسى (ﷺ) ولا تتبعوا أهواء

=* لأنى لم أتكلم بشىء من عندى، بل أقول ما أوصانى به الآب الذى أرسلنى. . . فإن ما أقوله من كلام، أقوله كما قاله لى الآب ـ يوحنا ١٢ : ٤٩-٥٠ .

* وجاء فى إنجيل متى أن المسيح قال لسائله : «لماذا تدعونى صالحًا؟ ليس أحد صالحًا إلا واحد وهو الله» الإصحاح ١٩ : ١٦ . وقد تم تغيير تلك العبارة فى بعض الترجمات، فجاءت كالتالى : «وإذا شاب يتقدم إليه ويسأل : أيها المعلم الصالح، أى صلاح أعمل لأحصل على الحياة الأبدية؟ فأجابه : لماذا تسألنى عن الصالح؟ واحد هو الصالح» وبالطبع واضح أن هذا السياق غير سوى وأنه تم تغييره، فالسائل لم يسأل عن الصالح، وإنما نادى المسيح بالمعلم الصالح، وسأله : أى صلاح يعمل للحصول على الحياة الأبدية؟ وذلك النص هو ما جاء فى إنجيل لوقا ١٨ : ١٨ـ١٩ وإذا رجعنا لطبعة الملك جيمس الإنجليزية، لوجدنا النص كالآتى :

Why do you call me good? no one is good but One, that is God.

من يأمرونكم بعبادة عيسى (ﷺ)، فأولئك ضلوا بأنفسهم، وأضلوا كثيراً من الناس، والأمر الجدير بالذكر هنا، أن عيسى (ﷺ) اتهم الأحبار مراراً وتكراراً بأنهم يُضلون الناس[1].

* * *

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) ﴾

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ طرد الله من رحمته الذين كفروا من بنى إسرائيل، ولعنهم داود (ﷺ)[2] ولعنهم عيسى ابن مريم (ﷺ)، وقد جاء فى الأناجيل أن عيسى (ﷺ) كان يقول: يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء، وكان يلقب أحبار اليهود بالحيات أولاد الأفاعى، بسبب عصيانهم ومكرهم وشرهم ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ إذا رأوا الرجل يأثم ويظلم ويفجر لا يمنعونه. عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله (ﷺ) «إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ـ ثم قال ـ: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ إلى قوله ﴿ فَاسِقُونَ ﴾ ـ ثم قال ـ: كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً، أو تقصرنه على الحق قصراً أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعنكم كما لعنهم» رواه أبو داود الترمذى.

* * *

(١) من ضمن ما قاله المسيح (ﷺ) عنهم: حقّا إنكم رفضتم وصية الله لتحافظوا على تقليدكم أنتم! . . . وهكذا تبطلون كلمة الله بتعليمكم التقليدى الذى تتناقلونه! ـ مرقس ٧: ٩ـ ١٣ (وهو ينقل ذلك عن إشعياء قائلاً: أحسن إشعياء). ـ الويل لكم يا علماء الشريعة، فإنكم خطفتم مفتاح المعرفة، فلا أنتم دخلتم ولا تركتم الداخلين يدخلون ـ لوقا ١١: ٥٢ ـ احذروا من الكتبة الذين يرغبون التجول بالأثواب الفضفاضة، ويحبون تلقى التحيات فى الساحات العامة، وصدور المجالس فى المجامع وأماكن الصدارة فى الولائم، يلتهمون بيوت الأرامل ويتذرعون بإطالة الصلوات. هؤلاء ستنزل بهم دينونة أقسى ـ لوقا ٢٠: ٤٦ ـ ٤٧ ـ تطوفون البحر والبر لتكسبوا متهوداً واحداً، فإذا تهود جعلتموه أهلاً لجهنم ضعف ما أنتم عليه! الويل لكم أيها القادة العميان! ـ متى ٢٣: ١٥-١٦.

(٢) جاء فى مزامير داود:

* . . . لا يكونون مثل آبائهم، جيلاً عنيداً متمرداً. . . لم يثبت قلبه ولا كانت روحه أمينة لله . . . لكنهم أوغلوا فى غيهم مستثيرين غضب العلى فى الصحراء. . . وتذمروا على الله. . . واندلعت النار فى يعقوب واشتد السخط على إسرائيل لأنهم لم يؤمنوا بالله. . . ومع هذا ظلوا يخطئون. . . ولكنهم خادعوه بأفواههم ونافقوه بألسنتهم. لم يكونوا مخلصين له ولا كانوا أوفياء لعهده. . . بل ارتدوا عنه وغدروا كما فعل آباؤهم. . . وآثاروا غيرته بأصنامهم ـ ٧٨: ٨ ـ ٥٨.

﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٨١) ﴾

ترى يا محمد كثيراً من أهل الكتاب يتحالفون مع كفار مكة والعرب لضرب الإسلام والمسلمين، فما أسوأ ما زينت لهم أنفسهم من الشر، فاستحقوا سخط الله وغضبه وخلودهم فى النار. ولو آمنوا بربهم حق الإيمان، وآمنوا بمحمد والقرآن ما اتخذوا المشركين والكفار أولياء، ولكن أكثرهم فاسقون خارجون عن طاعة الله ورسله.

***

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء السابع

سورة المائدة

من الآية ٨٢ حتى نهايتها الآية ١٢٠

وسورة الأنعام

من بدايتها حتى الآية ١١٠

obeikandl.com

obeikandl.com

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) ﴾

ستجدُ يا محمد أن اليهود والذين أشركوا أشد أعدائكم حقدًا وكراهية لكم، وستجد عند كثير من النصارى مودة صادقة، أولئك الذين لا يتكبرون، وستجد منهم من يرق قلبه، وتفيض عيناه بالدموع عند سماعهم القرآن، وتبينهم للحق، ويلجأون لله ليكتبهم مع الشاهدين، وهذه الأمة من النصارى نزلت فيهم آية آل عمران ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [١٩٩]. روى أن الآية نزلت فى النجاشى ملك الحبشة ومن معه من القسس. فقد خاف رسول الله (ﷺ) على أصحابه من أهل مكة، فبعثهم إلى الحبشة، وقال لهم عن النجاشى ملكها: «إنه ملكٌ صالح لا يَظلم ولا يُظلم عنده أحد، فاخرجوا إليه حتى يجعل اللهُ للمسلمين فرجًا» فلما وردوا عليه أكرمهم، وقال لهم: تعرفون شيئًا مما أُنزلَ إليكم؟ قالوا: نعم. قال: فاقرءوا. فقرءوا سورةَ مريم وحوله القسيسون والرهبان، فانحدرت دموعهم مما عرفوا من الحق.

* * *

﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٨٦) ﴾

وبعد أن شهد القسيسون والرهبان أن القرآن حق، قالوا وأى مانع يمنعنا من أن نصدق بالله وحده وما وصل إلينا من الحق الذى أنزل على محمد، ونحن نرجو وندعو الله أن يحشرنا مع الصالحين فى جنة النعيم ﴿ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ هذا هو جزاء من أحسن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، أما ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا﴾ بآيات الله فمصيرهم جهنم وبئس المصير.

* * *

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٨٨)﴾

قال الطبرى: [ثلاثة نفر على عهد رسول الله (ﷺ) اتفقوا، فقال أحدهم: أما أنا فأقوم الليل لا أنام، وقال الثانى: أما أنا فأصوم النهار فلا أفطر، وقال الآخر: أما أنا فلا آتى النساء. فبعث رسول الله (ﷺ) إليهم، فقال: «لكنى أقوم وأنام، وأصوم وأفطر، وآتى النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى»] رواه البخارى ﴿وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ فلا تعتدوا بالتمتع بما هو ليس حلالاً، ولا تحرموا ما أحل الله لكم فتعتدوا على فطرتكم وطبيعتكم، واتقوا عصيان الله، فلا إفراط ولا تفريط.

* * *

﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩)﴾

لا يحاسبكم الله إذا حلفتم دون قصد، كأن تقولوا: لا والله، بلى والله ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ﴾ ولكنه سيحاسبكم بما صممتم عليه وأقسمتم، ثم حنثتم، أى لم تحافظوا ولم توفوا بقسمكم، فكفارة ذلك ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ مما تأكلون أنتم وأهلكم ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ أو كسوة عشرة فقراء كما تكسون أهلكم ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ لتوسيع سبل تحرير العبيد ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ﴾ فمن لم يستطع أيّا من ذلك فليصم ثلاثة أيام ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ أوفوا بالأيمان التى حلفتم بها، فإن لم تستطيعوا فكفروا عنها، واحرصوا على عدم الحلف ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ يظهر الله لكم معالم شريعته ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

* * *

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٩٢)﴾

الخمر هى كل ما يخامر العقل، أى يُغَيِّبه، سواء أكان سائلاً أم أقراصًا أم يتعاطى بالشم، والميسر هو القمار بأنواعه، والأنصاب كانت حجارة حول الكعبة يعظمونها، والأزلام كانت قداحًا يستخدمونها لمعرفة ـ فيما يظنون ـ ما قسمه الله لهم فى الغيب، ويتصرفون على أساسها. وصف تعالى كل ذلك بأنه ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ معنى كلمة رجس الصوت الشديد، ولكنها تستخدم بمعنى جامع للأفعال القبيحة القذرة، ويأمر الله المؤمنين أن يجتنبوها إذا أرادوا الفلاح فى الدنيا والآخرة. فشرب الخمر ولعب الميسر يزرع بينكم العداوة والكراهية[1]، ويصدكم عن ذكر الله، فعليكم الانتهاء من ذلك. وهذه الآية هى الأخيرة والفاصلة فى تحريم الخمر. وواضح أن كلاً من شرب الخمر ولعب الميسر يصدان عن ذكر الله وعن الصلاة، فهل هناك بعد ذلك إثم؟ احذروا أيها المؤمنون من عصيان ربكم، ومن عصيان رسولكم، فإن أدرتم ظهوركم لأوامر الله ورسوله، فانتظروا العاقبة المؤلمة فى الدارين، وما على الرسول إلا البلاغ.

***

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (٩٣)﴾

روى الترمذى عن ابن عباس قال: لما نزل تحريم الخمر قالوا: يا رسول الله، أرأيت الذين ماتوا وهم يشربون الخمر؟ فنزلت الآية ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ إِذَا مَا اتَّقَوا﴾ أى ليس عليهم معصية أو إثم فيما طعموا قبل نزول تحريم الخمر إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات، فارتقوا إلى مراتب التقى والإحسان؛ لأن الله ﴿يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

(١) تدفع عائلات مدمنى الخمر، وخصوصًا زوجاتهم، ثمنًا كبيرًا لذلك، فكثيرًا ما يعتدى الأزواج على أزواجهن ويضيعون حقوقهن بسبب الخمر، ولذلك قادت النساء فى الولايات المتحدة الحركة المطالبة بمنع الخمور فى الربع الأول من القرن الماضى، ولكنها فشلت بسبب قوة أصحاب الأعمال فى ذلك المجال، مع شدة طلب الرجال لها، وجاء فى البرنامج التليفزيونى الأمريكى الشهير «أوپرا» أن واحدة من كل ثلاث زوجات، أو عشيقات، يعتدى عليها زوجها ـ وكثيرًا ما يكون السبب فى ذلك الخمر.

وليس فى الشريعة الإسلامية حساب بأثر رجعى، ولا تكليف للمرء بما لا يطاق، ولا حتى حساب أخروى على آثام المرء التى فعلها بطريق الخطأ أو الإكراه أو النسيان.

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٤) ﴾

يختبركم الله بأن يُيسر لكم صيد بعض الحيوانات والطيور ليعلم من يمتنع عن الصيد إطاعة لأوامر الله وخوفًا من معصيته، فمن تعدى حدود الله بعد ذلك الإنذار والإعلام ﴿ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٩٥) ﴾

إذا أحرم المسلمون بالحج أو العمرة، حرم الله عليهم صيد الحيوانات البرية والطيور، فمن تعمد قتل ذلك الصيد، فعليه تقديم مثل ما اجترأ على صيده هديًا مماثلاً من هذه النعم إلى الكعبة، والذى يحكم بذلك رجلان عدلان منكم، أو يخرج بقيمة المثل طعامًا للمساكين، أو يصوم أيامًا بعدد الفقراء الذين كانوا يستحقون الطعام لو أخرجه؛ ليعانى المعتدى نتائج جُرمه، و﴿ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ﴾ عفا الله عمن قتل الصيد قبل تحريمه، ولكن بعد تحريمه إن عاد إلى الصيد وهو مُحْرِم ﴿ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ﴾ والله ﴿ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾.

* * *

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩٦) ﴾

أحل الله للمُحرم صيد البحر بجميع أنواعه، طعامًا تستمتعون به، وينتفع به المقيم ﴿ وَلِلسَّيَّارَةِ ﴾ وهى الجماعة السائرة فى الأرض، أى المسافرون ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ﴾ تأكيدًا للحكم الشرعى بتحريم صيد البر على المحرمين ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ واتقوا عصيان الله الذى ستحشرون إليه.

* * *

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٩٧) ﴾

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ ﴾ البيت الذى عظمهُ وحرَّم الاعتداء فيه على الإنسان والحيوان ﴿ قِيَامًا لِلنَّاسِ ﴾ القيام والقوام هو ما يقوم عليه المعاش والصلاح، فالبيت الحرام معاش وصلاح للناس، وقال الزمخشرى: [انتعاشًا لهم فى أمر دنياهم ودينهم يأمن الناس فيه، ويتجهون إليه فى صلاتهم ويسعون لله، فى الحج وفى العمرة] ﴿ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ ﴾ قيل المقصود ذو الحجة، وقيل بل الأشهر الحرم كلها: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، يأمنون من الاعتداء فى هذه الأشهر الحرم ﴿ وَالْهَدْيَ ﴾ كل ما يهدى إلى الكعبة ﴿ وَالْقَلَائِدَ ﴾ ما يعلق فى أعناق الهدى علامة على أنها فى سبيل الله، تنحر ويوزع لحمها على الفقراء، كل ذلك جعله الله سبيلاً لصلاح الناس، ليدرك الناس أن الله يعلم كل صغيرة وكبيرة فى السماوات والأرض، من تشريع يُنزله عليكم ليُصلح به نفوسكم، لتشريع يُصلح به أبدانكم ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

***

﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٨) مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٩٩) ﴾

انتبهوا أيها الناس؛ إن عذاب الله شديد لمن يجحد رسالته وشرعه، وإنه واسع المغفرة لمن تاب وآمن وعمل صالحًا، واعلموا أن مهمة الرسول هى إبلاغ الرسالة وعليكم العمل بها، والله لا يخفى عليه شىء مما تظهرونه أو تكتمونه.

***

﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠٠) ﴾

لا يغتر المؤمن ولا ينخدع بظاهر الأمور، فقليل محمود عند الله خير من كثير مذموم من الله؛ وقال الطبرى: [هذا الكلام وإن كان مخرجه مخرج الخطاب لرسول الله (ﷺ) فالمراد به بعض أتباعه، يدل على ذلك قوله: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾]، أى أن الكلام موجه لصحابة الرسول (ﷺ)، ولأتباعه إلى يوم الدين.

***

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢) ﴾ .

يا أيها المؤمنون، لا تسألوا رسولكم كثيراً عن أمور إن تظهر لكم تسؤكم لما قد يكون فيها من المشقة أو الحرج، ويكفيكم أن تنتظروا ما ينزل على الرسول من القرآن؛ وجاء فى الحديث: «ذرونى ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم» رواه ابن ماجة، وجاء أيضًا: «إن الله ـ تعالى ـ فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدوداً فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها» رواه الدار قطنى، وأحيانًا يسأل الناس ليس على وجه الاسترشاد، ولكن على وجه التباهى والتفاخر بادعاء العلم، وأحيانًا على وجه التعنت والعناد، ثم ينتهى السؤال بهم إلى الكفر.

***

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٣) ﴾

اختلق الكفار على ربهم كَذِبًا بعض الأمور، منها تحريم ما أحل الله، مثل البحيرة وهى الناقة إذا ولدت خمسة أبطن آخرها ذكر شقوا أذنها ومنعوا ركوبها وتركوها لآلهتم، والسائبة؛ قيل كان الرجل يقول إذا برئت من مرضى فناقتى سائبة، أى لا يركبها أحد، ولا يكلفها أحد بعمل، والوصيلة، وهى الشاة إذا ولدت أنثى فهى لهم، وإذا ولدت ذكراً فهو لآلهتهم، فإذا ولدت ذكراً وأنثى قالوا عنها وصلت أخاها، وقيل هى الناقة تنجب أنثى ثم أنثى، فكانوا يتركونها لآلهتهم ويقولون وصلت أنثى بأنثى، والحام وهو الفحل من الإبل يُنتج من صلبه عشرة أبطن فيترك لآلهتهم فلا ينتفع منه بشىء ولا يمنع من ماء ولا مرعى، كل هذه الممارسات لا أصل لها فى الشرع، وما هى إلا افتراء على الله الكذب ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ .

***

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٠٤) ﴾

وإذا قيل لهؤلاء الكافرين تعالوا إلى ما أنزل الله من آيات بينات فى القرآن، وإلى ما بينه الرسول (ﷺ) من أحكام، قالوا يكفينا ما وجدنا عليه آباءنا. أفتقولون هذا حتى ولو كان آباؤكم يجهلون الحق، ولا يعرفون طريق الصواب؟!.

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) ﴾

قال الطبرى: [أصح التأويلات عندنا ما رُوى عن أبى بكر الصديق (رضي الله عنه): الزموا العمل بطاعة الله وبما أمركم به، وانتهوا عما نهاكم الله عنه، لا يضركم ضلال من ضل إذا أنتم لزمتم العمل بطاعة الله، وأديتم فيمن ضل من الناس ما ألزمكم الله به فيه من فرض الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والأخذ على يديه إذا رام (فعل) ظلمًا لمسلم أو معاهد (من له عهد عند المسلمين)، ولا ضير عليكم فى تماديه فى غيه وضلاله، إذا أنتم اهتديتم وأديتم حق الله ـ تعالى ذكره ـ فيه].

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ (١٠٦) فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٧) ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨) ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ الآية فى الوصية عند اقتراب الموت، يشهد عليها ﴿ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ اثنان من المعروفين بالعدل من المسلمين ﴿ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ أو اثنان من غير المسلمين ﴿ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ سافرتم فيها ﴿ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ ﴾ نزلت بكم مصيبة الموت ﴿ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ ﴾ توقفونهما للقسم بعد أداء الصلاة؛ لأن ذلك أدعى إلى صدقهما ﴿ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ ﴾ يحلفان بالله العظيم ﴿ إِنِ ارْتَبْتُمْ ﴾ ظهرت لكم ريبة، أى شك ﴿ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾

لا نشترى بالقسم فائدة أو نفعًا لنا أو لأحد من أقاربنا ﴿ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ ﴾ بل نتلو الشهادة بحق الله، حتى لا نكون من الآثمين ﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا ﴾ فإن ظهر لكم أنهما كاذبان فاستبدلوهما باثنين من الورثة المستحقين للتركة بدل ﴿ الْأَوْلَيَانِ ﴾ اللذان شهدا الزور ﴿ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا ﴾ يحلفان أن شهادتهما أصدق من شهادة الأولين ﴿ وَمَا اعْتَدَيْنَا ﴾ ويحلفان: لم نتجاوز الحق فى أيماننا، ولم نتهم الشاهدين زورًا، فإن فعلنا فنحن من الظالمين المستحقين لعقاب الله ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا ﴾ ذلك أقرب أن يؤدوا الشهادة صادقة ﴿ أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ (ترد) تعنى ترفض، فيكون المقصود: يخاف الشهداء من رفض شهادة من سبقهم وأقسم عليها و (تُرد) تُكرر، فيكون المقصود: يخاف الشهداء أن تأتى شهادة بعدهم تبين أنهم أقسموا على باطل، وفى الحالتين يكون المقصود دفع الشهداء لأن يقسموا بالحق ولا يزوروا ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ خافوا عصيانه الموجب لعقابه ﴿ وَاسْمَعُوا ﴾ اسمعوا لما يشرعه لكم الله، واعلموا أن الله ﴿ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾.

***

ومن مواريث الدنيا الفانية، تنتقل الآيات إلى الميراث الباقى، للحياة الكبرى فى الآخرة، وشهاداتها.

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١٠٩) ﴾

اعملوا ليوم يجمع الله الرسُل فيقول لهم ماذا أجابتكم أممكم الذين أرسلتكم إليهم؟ قالوا من هول ذلك اليوم، ومن يقينهم بعدل الله وإحاطته بكل حادث، وربما طمعًا فى رحمته ﴿ لَا عِلْمَ لَنَا ﴾ فإنك وحدك تعلم خفايا الصدور، وأنت ﴿ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾.

***

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١١٠) وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (١١١) ﴾

فى هاتين الآيتين، يُعدد الله بعض ما أنعم به على عيسى ابن مريم (ﷺ)، وأمه مريم العذراء التى اصطفاها على نساء العالمين، فقد خلقه الله من أم بلا أب؛ ليكون آية على قدرة الله، ومكنه أن يكلم الناس رضيعًا فى المهد وحين أصبح كهلاً، وعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، ومكنه من أن يخلق الطير من الطين، وينفخ فيه فيصير طيراً بإذن الله، ومكنه من أن يبرئ الأكمه (الأعمى) والأبرص، وأن يحيى الموتى، كل ذلك بإذن الله، وحماه من بنى إسرائيل الذين رفضوا رسالته برغم معجزاته البينة، حتى جحدوا بها وقالوا عنه ساحر مبين، وأوحى الله للحواريين أن يؤمنوا به وبرسوله عيسى (ﷺ)، فآمنوا وأسلموا.

***

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ(١١٥)﴾

قال الحواريون، وهم الخلصاء من أتباع المسيح عيسى ابن مريم (ﷺ) ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ فأجابهم ﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ استحوا من الله بعد أن رأيتم كل هذه المعجزات، واخشوا على أنفسكم من عصيانه الذى يستوجب عقابه ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ فى أنك رسول الله ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ نشهد لك بهذه المعجزة عند من لم يشاهدها. واتجه عيسى (ﷺ) بكيانه إلى الله قائلاً ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ﴾ وبرهانًا على تمام قدرتك ﴿وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ فأجابه الله ـ تعالى ـ محذراً: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾.

***

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي

وَرَبِّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾

يُطلعنا الله على ما سيحدث يوم القيامة حين يسأل الله عيسى ابن مريم (ﷺ) ﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ هل قلت للناس أن يتخذوك وأمك إلهين من دونى؟ فيجيب المسيح (ﷺ) ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ أنزهك عن أن يكون لك شريك ﴿ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ لا يمكن أن أقول ما ليس لى فيه حق ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾ لأنك أنت العالم بكل شىء ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ فأنت العالم بخفايا نفسى فضلاً عن مظاهر قولى، ولا أعلم ما فى نفسك ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ﴾ ما قلت لهم إلا أن اعبدوا الله ربى وربكم ورب السماوات والأرض ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ رقيبًا فى الحياة الدنيا ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي ﴾ رفعتنى إليك بعد استيفاء أجلى فى الأرض(١) ﴿ كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ كنت تراقب ما يفعلون وما يقولون، وأنت شهيد على كل شىء ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ تتصرف فيهم كما تشاء ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ فأنت وحدك القاهر فوق عبادك، ذو الحكمة البالغة، ولا يغفر الذنوب إلا أنت.

***

﴿ قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾

---

(١) عرضنا فى بعض الهوامش السابقة من أقوال عيسى (ﷺ) فى الأناجيل، ونكتفى هنا بأهمها:

* الوصية العظمى:

تقدم إليه واحد من الكتبة.. فسأله: أية وصية هى أولى الوصايا جميعًا؟ فأجابه يسوع: أولى الوصايا جميعًا هى: اسمع يا إسرائيل، الرب إلهنا رب واحد ـ مرقس ١٢: ٢٨-٢٩.

* والحياة الأبدية هى أن يعرفوك أنت الإله الحق وحدك، والذى أرسلته: يسوع المسيح ـ يوحنا ١٧: ٣.

* وأنا إنسان كلمتكم بالحق الذى سمعته من الله ـ يوحنا ٨: ٤٠.

* وجاء فى سفر إشعياء، الذى اقتبست الأناجيل أقوالاً كثيرة منه، سواء على لسان المسيح (ﷺ)، أو يوحنا، أى يحيى (ﷺ)، أو غيرهما:

لا إله إلا الله. هكذا قال الرب ملك إسرائيل وفاديه. رب القوات. أنا الأول والآخر ولا إله غيرى.. ومن مثلى؟ ـ سفر إشعياء ٤٤: ٦ ـ طبعة دار المشرق ـ بيروت.

فى هذا اليوم المشهود سيقول رب العالمين ﴿هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ فالصادقون مع الله؛ المصدقون بكتبه ورسله واليوم الآخر مثواهم ﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ ولهم أكثر من ذلك ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾، وسبحان الله العظيم عندما يقول عن عباده ﴿رَضُوا عَنْهُ﴾، وذلك هو ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ثم تؤكد السورة فى ختامها ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

***

obeikandl.com